مفهوم الكتابة في السياق القرآني

المقدمــة

الحمدُ لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرفِ الأنبياء والمُرسلين، نبيّنا محمّد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أمّا بعد ، تُعدُّ الكتابةُ أداة للقراءة اللُّغات المُختلفة، وهي إحدى مهارات اللُّغة العربية، وهي عملية عقلية يقوم الكاتب فيها بتوليد الأفكار وصياغتها وتنظيمها، ثم وضعها بالصورة النهائية على الورق، والكتابة تُعبّرُ عمّا في داخل الإنسان من شعورٍ مُختلف، فكُلّما رأى الإنسانُ أشياءً تُثيرُ إحساسه، فتدخلُ للمُخّ بصورة تلقائية لا إراديّة ، ومن ثمّ يقومُ المُخّ بتحليل هذه المعلومات عن طريق عمليات مُختلفة ،ومُعالجتها، ثُمّ تظهرُ هذه المعلومات في جُملٍ ،وتراكيب مُختلفة يُمكنُ كتابتُها وقراءتُها.

ولا شكّ أن أوّل من كتب هو الله- تبارك وتعالى- والدليلُ على ما رواه ابنُ عبّاسٍ- رضي الله عنه- عن النبيّ- صلى الله عليه وسلّم- فيما يرويه عن ربّه- عزّ وجلّ- حيث يقولُ: "إن اللهَ كتَب الحسنات والسيئات، ثم بيَّن ذلك؛ فمن هَمَّ بحسنة فلم يعملْها، كتبها الله عنده حسنةً كاملة، وإن همَّ بها فعملها، كتبها الله عنده عشرَ حسنات، إلى سبعمائة ضِعف، إلى أضعاف كثيرة، وإن هَمَّ بسيئة فلم يعمَلْها، كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن همَّ بها فعمِلها كتبها الله سيئة واحدة"(1).

وأوّل ما خلق الله- تبارك وتعالى- من أدوات الكتابة القلمُ، وفي ذلك يقولُ النبيُّ- صلى الله عليه وسلّم-: "إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتُب، قال: رب، وماذا أكتب؟ قال: اكتُبْ مقاديرَ كل شيء حتى تقومَ الساعة"(2).

فالكتابةُ لها شأنٌ عظيمٌ في حفظ السجّلات المرئية للغات كافة، حيثُ عن طريقها يتمّ حفظُ الأفكار وإرسالُها عبرَ مسافاتٍ كبيرةٍ من الزمان والمكان .وقبل البدء في عرض مفهوم الكتابة في القرآن الكريم، يَجدُر بنا أن نَعرضَ شيئًا من مفهوم الكتابةِ في اللُّغة والاصلاح :الكتابةُ في اللُّغة :قال ابنُ منظور: "كتب. الكتاب معروف, والجمع كُتبٌ. وكتب الشيء يكتبه كتباً وكتابةً, وكتبه"(3).

وقال القلقشندي: "الكتابة في اللغة مصدر: كتب يكتبُ كِتْبا, وكِتابةً ومكْتَبَة وكِتِبَة فهو كاتب. ومعناها الجمع, يقال: تكتّب القومُ إذا اجتمعوا, وفيه قيل لجماعة الخيل كَتِبَة, وكَتَبت البغلة إذا جمعت بين شفريها بحلقة أو سَيْر ونحوه, ومن ثم سمي الخط كتابة لجمع الحروف بعضها إلى بعض, كما سمي خرز القرية كتابةً لضم بعض الخرز إلي بعض"(4).

الكتابةُ في الاصطلاح :أمّا الكتابةُ في الاصطلاح فقد عُرّفت بتعريفاتٍ مُختلفة، وأغلبُ هذه التعريفات يدور حولَ فِكرةٍ واحدةٍ، وهي أن الكتابةَ ما هي إلاّ عمليّة تفسيرٍ لما يكون داخل الإنسان من مشاعرَ وأحاسيس مُختلفة .

ومن أهم هذه التعريفات تعريف حُسني عبدالباري عصر حيث يقول: "الكتابة هي عملية معقدة، في ذاتها كفاءة أو قدرة على تصور الأفكار، وتصويرها في حروف وكلمات وتراكيب صحيحة نحوًا، وفي أساليب متنوعة المدى والعمق والطلاقة، مع عرض تلك الأفكار في وضوح، ومعالجتها في تتابع وتتدفق، ثم تنقيح الأفكار والتراكيب التي تعرضها بشكل يدعو إلى مزيد من الضبط والتفكير"(5).

يقول الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾(3)، في هذه الآية تأكيد لقوله تعالى:﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾(4)، فلماذا قال بأيديهم؟ وهل تكون الكتابة بغير اليد؟ والإجابة على ذلك تكون من وجوه الوجه الأول: أن هذا اللفظ يتضمن التأكيد مثل قوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْواهِهِمْ﴾(5)، وقوله: ﴿وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيهِ﴾(6)، والمقصد منه تحقق وقوع الكتابة ومنع المجاز عنه.

الوجه الثاني: أنه تصوير للحالة في النفس كما وقعت، حتى يكاد المُستمع لذلك أن يكون مشاهداً للهيئة، فهو من بديع التصوير القرآني .الوجه الثالث: أنه يتضمن الإخبار عن اهتمام القوم بتزييف كلام الله وتزويرهم، فهم يقومون به بأيديهم ليتأكدوا من وقوعه ومن إتمامه على ما أرادوا .وختم الآية بقوله: ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾(7) هذا تفصيل للويل السابق.

ويُستفاد من هذه الآية إثبات قاعدة شرعية: وهي أن العبد كما يُعاقب على نفس فعله، فهو أيضاً يُعاقب على أثر فعله؛ لأن الله غاير بين الأمرين، فإنه بيّن في الأول استحقاقهم العذاب بنفس الفعل، وفي الثاني ذكر استحقاقهم له بأثره

.قال القرطبي رحمه الله: " في هذه الآية والتي قبلها التحذير من التبديل والتغيير، والزيادة في الشرع؛ فكل مَن بدل وغيّر، أو ابتدع في دين الله ما ليس منه ولا يجوز فيه، فهو داخل تحت هذا الوعيد الشديد، والعذاب الأليم "(6).

الكتابةُ بمعنى الفرض :يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾(7)، ضرب فريد من الإعجاز البياني، فهو يُبيّن أسلوبا من أساليب الأمر الواردة في القرآن الكريم، فقد ورد الأمر في القرآن بأساليب مختلفة، كُلّ أسلوب في موقعه المناسب للسياق، فقد يرد الأمر صريحا بمادته المستعملة فيه وهي (افعل)، وقد يرد بلفظ فيه حروف الأمر نفسها، وقد يدلّ على الأمر بصيغة (كتب)، كما في هذه الآية، وتصريف القول في القرآن على هذا النحو فن من فنون إعجازه الأسلوبي، ومنّة يمتنّ الله بها على عباده حتى يُكثروا النظر في القرآن قراءة وتدبّرا وعملا .

وفي قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً﴾ (8)، أي فُرض عليكم، فهنا الأمر جاء بصيغة (كُتب) كذلك، وحضر يُلتمس فيها ما هو شديد القُرب، وربُّما كان سبب تقديم (أحدكم) هو الاهتمام بالمتقدّم، فالآية في الوصيّة، والموصي يكون في وعيه ويتكلّم .

وفي قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾(9)، تأكيد على فرض الصيام وأنه كان مفروضا على من كان قبلنا من الأمم السابقة، وهذ التأكيد يتبيّن من تكرار لفظ (كُتب) ففي تكرار اللفظ توكيد للحكم وترغيب في الفعل وتطييب على النفس . وفي قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾(10).

في هذه الآية يراعي الله تعالى ميول النفس الإنسانية ويساير طبيعتها ويتدرج في علاجها، وهذه سمة غالبة في التشريعات التي تم التدرج فيها، كتحريم الخمر في جانب النواهي أو تشريع الجهاد في جانب الأوامر، فالمتأمّل في هذه الآية القرآنية الآمرة بالقتال سوف يلمس تلك المسيرة القرآنية لطبيعة النفس الإنسانية بشكل واضح جدّاً، ويجد أن مُعالجة الطبيعة الإنسانية تحتاج إلى عدّة أمور منها :أولا: بيان أن القتال فريضة مكتوبة .

ثانيا: أن القتال أمر تكرهه النفس الإنسانية، وهذا الاعتراف فيه فائدة تمهيدية لعلاج النفوس من هذه الكراهية، فالنفس تأنس بالحديث الذي فيه اعتراف بالحقيقة حتى

ولو كان شاقّاً على النفس، وبهذا تكون طريقة تربوية قائمة على الصراحة وعدم الهروب من مواجهة الواقع .

ثالثا: بيان أنه ليس كل ما تكرهه النفس شرّاً دائماً، و لا ما تحبه النفس خيراً دائماً، وهذه حقيقة تلمسها النفس بالتجربة، وفي هذا إشارة إلى أن الآيات تتدرج مع النفس الإنسانية واقفة على حقائقها، ولا يخفى أن القرآن بعد هذا لا ينسى في تشريعه للجهاد من بيان ما تميل إليه النفس وتحبه وهو النصر والفوز على الأعداء .وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَسِيتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ فَلَمَا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّواْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾ (11).

قال ابن عاشور:- في هذه الآية محل العبرة والموعظة لتحذير المسلمين من حال هؤلاء أن يتولوا عن القتال بعد أن أخرجهم المشركون من ديارهم وأبنائهم، وبعد أن تمنّوا قتال أعدائهم وفرضه الله عليهم (12).

فلله بلاغة هذا الكلام، وبراعة هذا الأسلوب، فهو سبحانه وتعالى يُحذّر عباده بلفظ بليغ وأسلوب غاية في الإتقان والبراعة عن أن يسلكوا مسلك الكفار في التولي عن القتال بعدما طلبوه منه سبحانه وكتبه عليهم .وفي قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بِيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهُمْ﴾(13).

في هذه الآية جواب لإبطال قول المنافقين، وتعليم للمؤمنين لدفع ما قد يقع في نفوسهم من الريب، إذا سمعوا كلام المنافقين، فالله سبحانه وتعالى يُعلّم عباده أن قدره وقضاءه غيرُ معلومين إلا بعد الوقوع، فمفهوم الآية هو أن على المؤمن أن يتوكّل على الله ويأخذ بالأسباب في الحرب وغيرها، ويعلم يقينا أن ما كتبه الله عليه سيصيبه وإن كان في بيته ومضجعه، وهذا أسلوب من أساليب التثبيت في حال الحرب لما قد يقع في صفوف المسلمين من الخوف والتردّد .قال ابن عاشور: والمعنى : " لو لم تكونوا ههنا وكنتم في بيوتكم لخرج الَّذين كتب الله عليهم أن يموتوا مقتولين فقتلوا في مضاجعهم الَّتي اضطجعوا فيها يوم أُحُد أي مصارعهم فالمراد بقوله: (كُتِبَ)، قدّر "(14)

وفي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾(15).

هذا أسلوب آخر من أساليب الإنذار التي خاطب الله تعالى بها المسلمين، وجعله دافعاً ومحفّزاً لهم إلى الجهاد، وهو توجيه التوبيخ واللّوم للذين يتساهلون أو

يَضعفون في أداء تكليف الجهاد ضد الأعداء، بل وأحياناً يُضعِفون الآخرين عن المشاركة في القتال، فقد وردت في هذه الآية المذمّة الإلهية لأولئك الذين يخافون ويستوحشون من المشاركة في الجهاد .ففي هذه الآية يوبّخ الله تعالى هؤلاء المتخاذلين الذين كانوا قبل صدور الأمر بالجهاد يُنادون بالحرب ومواجهة الأعداء، لكنّهم بعد صدور الأمر بالجهاد أخذوا يتذرّعون بعلل واهية لكي لا يحضروا في جبهات الحرب والقتال .

وهذا أسلوب من أساليب التربية القرآنية التي تزيد المؤمنين قوّة وثباتا في المعركة، وصبرا واحتسابا عند مواجهة العدو .الكتابة بمعنى البيان :يقول الله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُواْ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّواْ عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ﴾(16).

يتناول القرآن الكريم القصة في استدلالاته، واتخذها وسيلة من وسائله الكثيرة إلى أغراضه الدينية، وهي إحدى وسائله لإبلاغ الدعوة وتثبيتها، وفي القصة بيان البنية الفنية الخطابية للقرآن، وتتميز عن باقي السياق القرآني بدلالتها على المُضي، لأن أحداثها وقعت فعلا فدلالة المضي دلالة حقيقة .

والأرض المقدّسة هي الأرض المطهّرة، والأرض تطهر بطاعة الله، وتنجس بمعصيته، والأرض المقدسة هي التي يُعبد الله فيها، والمؤمن حقيقته أنه ينبغي أن يعيش في أرض يُعبد الله فيها؛ لأن علّة وجوده عبادة الله عزّ وجلّ، وأي مكان حال بينه وبين عبادة الله يجب أن يُغادره .ففي سرد هذه القصة في القرآن الكريم بيان التوجيه الربّاني للمؤمنين بأن يفرّوا بدينهم إذا ضاق بهم الحال وأصبحوا غير قادرين على إظهار شعائر دينهم .وفي ذلك يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾(17).

أي أن الفرار بالدين واجب على من لم يستطع إظهاره في مكان إقامته، والحجة قائمة عليه يوم القيامة .

وفي قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إسرآئيل أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾(18).

في هذه الآية جواب عن أصل الإشكال أن الذي يشتمل عليه قوله: ﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ ففي الآية حكمة بالغة، والمراد بالكتابة عليهم بيان هذه الحكمة لهم مع

عموم فائدتها لهم ولغيرهم كالحِكم والمواعظ التي بُيّنت في القرآن لأمة النبي- صلى الله عليه وسلم- مع عدم انحصار فائدتها فيهم .

وإنما ذكر في الآية أنه بينه لهم لأن الآيات مسوقة لعظتهم وتنبيههم وتوبيخهم على ما حسدوا عليه النبي- ﷺ- وعلى إصرارهم في العناد وإشعالهم نار الفتن والتسبيب في القتال ومباشرة الحروب على المسلمين، وهذا أسلوب رادع لمن يُقبل على اقتراف جريمة القتل دون مخافة من الله تعالى .وفي قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾(19).

في هذه الآية تضمين والتضمين نوع من أنواع البديع الذي هو إدراج كلام الغير في أثناء كلامه لقصد تأكيد المعنى، أو تركيب النظم ، وهذا ما تضمنته هذه الآية في القرآن.

فالقصاص المذكور في الآية هو مما كان مفروضا في التوراة والإنجيل، فبعد ما بيّن الله سبحانه وتعالى لعباده أنه أوجب عليهم الحكم بين الناس بما أنزله في كتابه، ساق لهم ما كان قد فرضه على من كان قبلهم وهو ما ذُكر في الآية، فضمّن الآية من القرآن حكما كان معمولا به في التوراة.

فمعنى الكتابة هنا هو الفرض، أي: وفرضنا عليهم فيها أن النفس بالنفس(20 .(الكتابة بمعنى القضاء :يقول الله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾(21)، فقد تأتي الكتابة بمعنى (قضى) أو (أوجب)، حيث جعل الله تعالى الإيجاب على نفسه إذ قال :﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾، وقال في آية أخرى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾(22)، فقد ضمّن الفعل معنى قضى، يعني قدّر في الأزل وأوجب على نفسه الرحمة، وعُدّي بـ (على) تعديةَ (قضى وأوجب) لإفادة المعنيين إيجازا واختصارا(23).

وهذا نوع من أنواع المجاز في القرآن الكريم، الذي يُعبّر عن الشيء بغير مسمَاه الحقيقي، إذ عبّر هنا عن القضاء والإيجاب بالكتابة، وذلك لمناسبة الكتابة لسياق الآية، وهذا من جماليات التعبير القرآني البليغ .

وفي قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾(24)، في هذه الآية جاء القرآن بأسلوب عميق ورحب، اتخذ فيه الحديث عن الله وعن الدار الآخرة بصور من البيان والإقناع العلمي يطّرد فيما يبلغه الناس آخر الدهر من ذكاء وإحاطة .

فعندما صعدت الإنسانية في مدارج النضج الفكري، واتسعت آفاقها العامة، جاء القرآن بهذا الأسلوب، حيث بدأ بالتعبير عن الفرض بلفظ الكتابة ليكون ذلك أشدّ وقعا في نفوس السامعين، فيشدّ سمعهم، ويُثير عقولهم، ممّا يزيدهم خشوعا وخضوعا لكلام الله رب العالمين .

الكتابةُ بمعنى التقدير :يقول الله تعالى: ﴿قُل لَّنْ يُّصِيبَنَا إلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا﴾(25)، من المعلوم أن الكتابة تأتي في لسان الشرع على ثلاثة أنواع :

النوع الأول: الكتابة الكونية، وتكون بمعنى التقدير والقضاء، ومنه قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْكُنتُمْ فِي بِيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾(26)، بمعنى: (لبرز الذين قُدّر عليهم القتل إلى مضاجعهم التي سيقتلون فيها).

النوع الثاني: الكتابة الجزائية، وهي كتابة الحسنات والسيئات، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(27)بمعنى:(إلا كُتب لهم بعملهم هذا حسنات في صحائفهم).

النوع الثالث: الكتابة الشرعية، وتكون بمعنى الفرض والإيجاب، ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾(28) بمعنى: (فرض عليكم الصيام (والنوع الثالث وهو الكتابة الشرعية لا يتعدى إلا بحرف الجر (على)، أما الأول والثاني فإنهما يتعديان بـ(اللام) في حالة قضاء الخير وكتابة الحسنة، ومثال قضاء الخير قوله تعالى: ﴿فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾(29) ، ومثال كتابة الحسنة: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(30).

ويتعديان بـ(على) في حالة قضاء الشر وكتابة السيئة، فمثال قضاء الشر قوله تعالى : ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾(31)، ومثال كتابة السيئة قوله – ﷺ -: " وإن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن همّ بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة "(32) .

فإن قال قائل: لم عدى الكتابة في قوله تعالى: ﴿قُل لَّنْ يُّصِيبَنَا إلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا﴾(33)، بـ(اللام) والمعلوم أن المصيبة شرّ على العبد؟ فالجواب عن هذا السؤال يكون من وجهين :الوجه الأول: أن المراد بالآية: (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا أو علينا)، ما كتب لنا من خير أو ما كتب علينا من شر، وقدم الخير والحسنة ليحاكي ترتيب الآية التي سبقتها، وهي قوله تعالى: ﴿إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾(34)، وإنما لم

يذكر (أو علينا) لدلالة السياق عليه كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾(35) أي وتقيكم البرد أيضا، ولكن حذفه لدلالة السياق عليه .

الوجه الثاني: أن المراد بقوله :﴿قُل لَّنْ يُّصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا﴾، أي إلا ما كتب الله علينا، و(اللام) تأتي بمعنى (على) كما في قوله تعالى: ﴿يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾(36)، فتكون الآية على هذا المعنى قاصرة على الإصابة بالمصيبة فقط .فإن قيل: فلمَ عبر بـ(اللام) ولم يعبر بـ(على)؟ يُقال: الجواب على ذلك يحتمل أمرين : أولهما: أنه عبر بـ(اللام) مكان (على) إغاظة لمن يفرح فيه إذا أصابته المصيبة، فكأنه تعامل مع المصيبة التي أصابته أنها مما كتب الله له لا مما كتب الله عليه ليغيظ أعداءه، فكأنه يقول لهم بلسان حاله: موتوا بغيظكم لن يضرنا كيدكم شيئا، فالسياق واحد مع الآيتين، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾(37)، وقال تعالى: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾(38)

الأمر الثاني: أنه عبر بـ(اللام) مكان (على) على اعتبار أنه إن صبر ورضي بقضاء الله فهو مكتوب له لا عليه، فهي لمن تأمل حسنة وليست بمصيبة، ويدل على هذا التوجيه قوله ـ ﷺ ـ " :عجبا لأمر المسلم إن أمر كله له خير إن أصابته سرّاءُ شكر فكان خيرا له وإن اصابته ضرّاءُ صبر فكان خيرا له "(39).

وعلى ما سبق فإن لفظ الكتابة لا يخرج معناه في القرآن الكريم عن هذه المعاني، فهو إما أن يدلّ على التقدير والقضاء، وإما أن يدل على الفرض والإيجاب، وإما أن يدل على كتابة الحسنات والسيئات، وهو فعل يتعدى باللام أحيانا، ويتعدى بعلى في أحيان أخرى، على حسب ما يُناسب سياق الآية، وقد تبيّن أن أسلوب القرآن كان ممتعا في دلالة الفعل في كل من تلك المعاني .وفي قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾(40).

في هذه الآية أسلوب اطنابٌ، وذلك بذكر أيديهم، فقد ذكرها ومعلوم أن الكتابة لا تكون إلا باليد لتصوير الحالة في النفس كما وقعت، وإبرازها أمام السامع حتى يكادُ يكون مشاهدا لها ولتسجيل الأمر عليهم، كما تقول لمن يُنكر معرفة ما كتب ووقع: أنت كتبته بيمينك .

وقد تمّ الحديث عن معنى الكتابة في هذه الآية في أوّل هذه الفقرة فلا داعي لتكرار الحديث عنها .وفي قوله تعالى: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَّكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ فَلْيَكْتُبْ﴾(41).

جاء الأمر بالكتابة في هذه الآية في صورتين :الأولى: في قوله تعالى:﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾، والأخرى في قوله تعالى: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾، وهذان الجزآن قد جاءا بصيغة الأمر، وأوّل ما يُلفت الانتباه هو اختلاف الصيغة، فالأمر بالكتابة عامة اصطُفي له صيغة (افعل)، وتعيين الكاتب اصطُفي له صيغة (ليفعل)، قال الدكتور محمود توفيق: وإذا تأملنا صورة الأمر (ليفعل)، وصورته (افعل)، ألفينا أن دلالة (ليفعل) على حقيقة معنى الأمر أكثر من دلالتها على غيرها، بينما دلالة (افعل) على غير حقيقة معنى الأمر كثيرة جداً، بل متنوعة الدلالة، وفي هذا ما قد يُعرب عن أن صيغة (ليفعل) لمَّا كانت هي الأصل في الوضع الأول وأقلّ استعمالاً كانت أليط بحقيقة معنى الأمر، بينما صيغة (افعل) أقدر على أن تتسع لدلالات عديدة على طريق ممهّد مستقيم، مثل: الإباحة أو الندب، أو نحو ذلك .

فكان فقه الدلالة البيانية لصيغة (افعل) أصعب مراساً، وأدعى إلى طول مراجعة، ونفاذ بصيرة في أغوار السياق المقالي والمقامي، فإن هذه المعاني السياقية لتلك الصيغة كثيراً ما تتداخل، أو يستدعي بعضها بعضاً، مما يُدخل المرء في إشكالية الوعي بدقائق الوجوه الدلالية للصيغة(42).

وأول ما يلفت الانتباه في هذا التركيب ضمير المفرد (الهاء) الغائبة، هل تعود إلى الدَّين، أم إلى الأجل ؟ والظاهر أن كلا الأمرين يجوز، وقد تكون الكتابة للدين والأجل معاً، وهنا يطرح سؤال آخر، وهو لم أفرد الضمير ؟ والجواب عليه يمكن أن يكمن في القول بأن عود الضمير إلى الدَيْن، وسبب إفراد الضمير هو دخول الأجل في بنود العقد المكتوب، فلا يقال :كتب الدين إلا وهو يريد كُتِب مقداره وأجله، ونحو ذلك.

وفي ذلك يقول القرطبي: " وفي قوله: ﴿فاكتبوه﴾ إشارة ظاهرة إلى أنه يكتبه بجميع صفته المبينة له، المُعرِبة عنه؛ للاختلاف المتوهم بين المتعاملين، المُعرِّفة للحاكم ما يحكم به عند ارتفاعهما إليه "(43).

وعليه يكون في الكلام إيجاز؛ حيث كتابة قيمة الدين وصاحبه، وموعد السداد، ومكان السداد.... إلى آخر هذه الأمور التي يُنصُّ عليها في العقد المكتوب؛ ولذلك يقول القرطبي أيضاً: ﴿فاكتبوه﴾، يعني الدين والأجل .

ويقال: أُمر بالكتابة، ولكن المراد: الكتابة والإشهاد؛ لأن الكتابة بغير شهود لا تكون حجة(44).

وفي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾(45).

أثار القرآن فكرة الكتابة في أسلوب لا يعمل على مناقشتها كونها الفكرة التي لا تثبت أمام الوهم فضلاً عن الفكر، بل أطلق الأسلوب في مجال التهديد، فهو سمع قولهم وسيكتب ما قالوا ليواجههم به يوم القيامة ويعاقبهم عليه، فقوله:﴿ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾، هو الأسلوب الطبيعي الذي يُقابل هذا المنطق، لأنَّه لم ينطلق من قناعة ليُقابل بقناعةٍ أخرى، ولم يتحرّك من حجّة ليواجه بحجّة أخرى، بل هو ناشئ عن عقدة كبرياء وطغيان، والله لا يسمح للمتجبرين والطغاة أن يأخذوا حريتهم بالحوار؛ لأنَّهم لا يفهمون كلمة الحقّ ولا يريدون أن يفهموها، فقد اختاروا الباطل على أساس موقف لا على أساس علم وفكر؛ فلا بُدَّ من مخاطبتهم باللغة التي يفهمونها، وهي القوّة التي كانوا يخاطبون بها النَّاس، وذلك من أجل تحطيم كبريائهم وإضعاف زهو القوّة في نفوسهم .ففي الآية أسلوب التفات من الغائب إلى المتكلّم وهو الله تعالى، وهذا الأسلوب فيه تهديد ووعيد .قال بن عاشور: " والمراد بالكتابة إمّا كتابته في صحائف آثامهم إذ لا يخطر ببال أحد أن يكتب في صحائف الحسنات، وهذا بعيد ، لأنّ وجود علامة الاستقبال يؤذن بأنّ الكتابة أمر يحصل فيما بعد، فالظاهر أنّه أريد من الكتابة عدم الصفح عنهم ولا العفو بل سيثبت لهم ويجازون عنه فتكون الكتابة كناية عن المحاسبة، فعلى الأول يكون وعيدا وعلى الثاني يكون تهديدا "(46).

فالظاهر أن المقصود بالكتابة هنا أحد الأمرين، إما الكتابة الحقيقية وهي الكتابة في الصحف، وإما المُحاسبة لهم بقبيح أعمالهم وأقوالهم التي كانوا يقولونها، ومن هنا يتبيّن أن الكتابة قد تستعمل في غير موضعها كناية يُعبّر بها عن شيء آخر مثل الحساب والعقاب ونحو ذلك، كما هو الحال في هذه الآية إذا قلنا بأن المقصود من الكتابة هنا هو المحاسبة .وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا ۚ قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾(47).

قال ابن عاشور: " وعبر بالمضارع بـ﴿يكتبون﴾ للدلالة على التكرر، أي تتكرر كتابتهم كلما يتكرر مكرهم "(48).

فالكتابة في هذه الآية جاءت بالمضارع للدلالة على التكرار؛ لأن الفعل المضارع يدلّ على تكرار الحدث.

وجملة ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ استئناف خطاب للمشركين مباشرة تهديدا من الله، فلذلك فصلت على التي قبلها لاختلاف المخاطب، وتأكيد الجملة لكون المخاطبين يعتقدون خلاف ذلك، إذ كانوا يحسبون أنهم يمكرون بالنبي- ﷺ- وأن مكرهم يتمشى عليه ولا يشعر به فأعلمهم الله بأن الملائكة الموكلين بإحصاء الأعمال يكتبون ذلك، والمقصود من هذا أن ذلك محصي معدود عليهم لا يهمل، وهو إنذار بالعذاب عليه، وهذا يستلزم علم الله تعالى بذلك .

وكذلك عبّر عن الكتابة بالمضارع في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ﴾(49)، ليفيد التجدّد والاستمرار، فما من عمل أو أثر يتجدّد إلا ويُكتب .وفي

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ الْمَلَئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِنَدَ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْئَلُونَ﴾(50).

من المعلوم أن الفعل المضارع يدلّ على الحال أو الاستقبال، وعندما تتّصل به السين، أو سوف تُخلصانه للاستقبال، فالسين في قوله تعالى :﴿سَتُكْتَبُ﴾، جاءت لتوكيد الوعيد، يعني: ستُكتبُ مقالتهم وجعلهم، (والجعل) بمعنى: القول والحُكم على الشيء، الملائكة إناثا.

ومن الملاحَظ أن الاستفهام الإنكاري يشتمل على التوعّد والوعيد بالعقاب، وكتابة الشهادة كناية عن تحقيق العذاب والعقاب على كذبهم وادّعائهم على الملائكة بكونهم إناثا، ويُسألون عن ذلك، وهذا وعيد في الآخرة(51).

فالسين حرف مُختص بالفعل المضارع وتخليصه للاستقبال(52)، ففي لفظة ﴿سَتُكْتَبُ﴾ أدخلت السين على الفعل ﴿تُكْتَبُ﴾ وأخلصته للاستقبال، ويعني أن ذلك الوعد مُحقّق لا محالة بعقابهم جزاء على أقوالهم الكاذبة وادعائهم، وفي إسناد الكتابة إلى المجهول، تهويلاً لشأن المكتوب.

وفي قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾(53).

إسناد كتابة بعض الأمور إليه جل وعلا، ومعلوم أن الذي يتولى كتابتها هم الملائكة، ولكنه أسند عز وجل ذلك إليه مبالغة في الاهتمام بذلك، وفي هذا التعبير من التهديد والوعيد ما لا يخفى على أحد .

وفي قوله تعالى: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾(54)، في هذه الآية وما شابهها من الآيات جاء فعل الكتابة بصيغة الأمر، وهو في حقيقة أمره دعاء، إذ أنه لا يستطيع أحد أن يأمر الله تعالى بشيء، فالأولى أن يقال لمثل هذه الصيغ في القرآن الكريم فعل دعاء وليس فعل أمر، إلا أن سياق الآية استدعى أن يأتي فعل الأمر بصيغة (افعل)، وهذا نوع من أنواع أساليب القرآن الكريم، وقد ورد في عدّة مواضع كلُّها تدلّ على الدعاء .

وفي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إَنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً﴾(55)، ومن أغراض الأمر (الالتماس والرجاء)، أي: التجوز بلفظ الأمر عن الالتماس والرجاء .فقد يخرج الأمر عن معناه الحقيقي الذي هو طلب الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام، إلى معنى الالتماس والرجاء، وهو أن يرد الأمر ويُراد به الالتماس لا الوجوب، لعدم وقوعه بين شيئين متساويين، ولتمييزه عن الدعاء الذي يُخاطب به الربُّ جلّ وعلاه وفي هذه الآية جاء فعل الكتابة بصيغة الأمر (كَاتِبُوهُمْ) الذي يدلّ على النصح والإرشاد، لا الوجوب والإلزام، وهذا نوع من أنواع المجاز .

الهوامش

(1) أخرجه البخاريّ ومسلم.

(2)
(3) ابن منظور، لسان العرب،
(4)
(5) حسني عبدالباري عصر، الاتجاهات الحديثة لتدريس اللغة العربية في المرحلتين الإعدادية والثانوية، مركز الاسكندرية للكتاب، مصر، 2000م، 248 (1) .سورة البقرة، الآية: (79)
(2) سورة البقرة، الآية:(79)
(3)سورة آل عمران،الآية: (167)
(4) سورة الأنعام، الآية: (39)
(5)سبق تخريجها
(6) .الجامع لأحكام القرآن،(2/ 223 (7) .(سورة البقرة، الآية: (187)

(8) سورة البقرة، الآية: (180)
(9) .سورة البقرة، الآية: (183)
(10) .سورة البقرة، الآية: (216)
(11) .سورة البقرة، الآية: (246)
(12) .انظر تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور: 485/2
(13) .سورة آل عمران، الآية: (154)
(14) .انظر تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور: 138/4 .
(15)سورة النساء، الآية: (77)
(16) .سورة المائدة، الآية: (21)
(17) .سورة النساء، الآية: (97)
(18) .سورة المائدة، الآية: (32)
(19) .سورة المائدة، الآية: (45)
(20) .انظر مجاز القرآن، للإمام عزالدين بن عبدالسلام، تـ (660هـ)، 130
(21) .سورة الأنعام، الآية: (12)
(22) .سورة الأنعام، الآية: (54)
(23) انظر موسوعة أساليب المجاز في القرآن الكريم، تأليف: أحمد الجبوري، 580.
(24) سورة الأعراف، الآية: (145)
(25) سورة التوبة، الآية: (51)
(26) سبق تخريجها.
(27) سورة التوبة، الآية: (121)
(28) .(سبق تخريجها.
(29)سورة البقرة، الآية: ( )187
(30) سبق تخريجها.

(31) سورة الحشر، الآية: (3.(
(32) رواه البخاري، رقم: (6491)، ومسلم، رقم: (131)
(33) سبق تخريجها.
(34) سورة التوبة، الآية: (50)
(35)سورة النحل، الآية: (81)
(36) سورة الإسراء، الآية: (107)
(37) سورة آل عمران، الآية: (119)
(38) سورة آل عمران، الآية: (120)
(39) رواه مسلم، رقم: (5322)
(40) سبق تخريجها.
(41) سورة البقرة، الآية: (286
(42) انظر صورة الأمر والنهي في الذكر الحكيم، تأليف: محمود توفيق، 53 .
(43)انظر تفسير القرطبي، المسمى الجامع لأحكام القرآن، 431/4.
(44) تفسير القرطبي، 430/4.
(45) سورة آل عمران، الآية: (181)
(46) انظر تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور، 4/ 183، 184.
(47) سورة يونس، الآية: (21)
(48) انظر تفسر التحرير والتنوير، لابن عاشور، 11/ 134.
(49) سورة يس، الآية: (12)
(50) سورة الزخرف، الآية: (19)
(51) انظر الوسيط في تفسير القرآن المجيد، للواحدي، 4/ 67، والبحر المحيط، لأبي حيان، 8/ 11، 12، والتحرير والتنوير، لابن عاشور: 25/ 184 .
(52)انظر الجني الداني في حروف المعاني، للمرادي، 60.
(53) سورة الزخرف، الآية: (80)
(54) سورة الأعراف، الآية: (156)
(55) سورة النور، الآية: الآية: (33)